آليات السّرد الروائي في ثلاثية نجيب محفوظ

NARRATIVE MECHANISMS IN THE TRIPLE OF NADJIB MAHFOUD

د. الطيب بوشيبة

قسم اللغة العربية وآدابها -جامعة وهران(1)أحمد بن بلة – وهران (الجزائر)

bouchiba1986t@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/05/24 تاريخ القبول: 2018/05/29 تاريخ النشر: 2018/09/01

الملخص:

مع مطلع القرن العشرين تأثّر أدبنا العربي الحديث بمجموعة من المذاهب الأدبية والفنّية. وهذا لعدة عوامل أهمها الاحتكاك بالغرب والترجمة، ومن جملة ما تمخّض عن هذا التأثُر ظهور أجناس أدبية وأشكال تعبيرية جديدة لم يعرفها العرب سابقا. كالمسرحية والقصة والرواية... والتّي لقيت الرواج الأكبر بين كُتابنا ومن هنا ظهرت أقلام جديدة حملت على عاتقها إرساء هذا الفن بالتأسيس له وإثراء حركة التأليف فيه. أمثال طه توفيق الحكيم، إحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ الّذي اخترناه موضوعا لهذه الدراسة المُعَنْونة آليات السرد الروائي في ثلاثية نجيب محفوظ. محاولين رصد خصوصية الجنس الروائي بشكل عام عنده، ثم قراءة آليات السرد في ثلاثيته المشهورة.

الكلمات المفتاحية: السرد ; البنية ; الرواية ; الأدب ; الآليات ; الثلاثية ;

***Résumé* :**

Au tournant du 20ème siècle, notre littérature arabe moderne a été influencée par des courants littéraires, Cela est dû à plusieurs facteurs, le plus important d'eux est la friction avec l'autre et la traduction. l'un des effets de cette influence est l'émergence de nouveaux genres littéraires et de formes d'expression jusqu'alors inconnues dans le monde arabe. Tels que le drame, l'histoire et le roman . Ce qui a reçu la plus grande popularité entre notre Auteurs, et par conséquent émergé de nouveaux projet entrepris d'établir cet art en le fondant et enrichir le mouvement littéraire. Comme Taha Hussein Tawfiq al-Hakim, Ihsan Abd al-Qudus et Naguib Mahfouz, que nous avons choisi le sujet de cette étude intitulée Les mécanismes narratifs dans les roman triples de Naguib Mahfoud, En essayant de suivre le genre du roman à son écriture, puis on présente les technique narratives de sa triple.

***Mots clés*:** *Narration ; Structure ;Roman ;Littérature ;Mécanisme ; Triple ;*

***ABSTRACT* :**

In the turn of the 20th century, our modern Arabic literature was influenced by literary currents, This is due to several factors, the most important of which is friction with each other and translation. one of the effects of this influence is the emergence of new literary genres and forms of expression hitherto unknown in the Arab world. Such as drama, history and novel. Which received the greatest popularity among our Authors, and consequently emerged from new project undertaken to establish this art by founding it and enriching the literary movement. Like Taha Hussein Tawfiq al-Hakim, Ihsan Abd al-Qudus and Nagib Mahfoud, who we chose the subject of this study entitled Narrative Mechanisms in the Tribal Novels of Nagib Mahfoud, Trying to Follow the Genre of the Novel to His Writing, then we present the narrative techniques of his triple.

***Key-words*:** *Narration ; Structure ; Novel ; Literature ; Mechanism ; Triple ;*

مدخل:

من الصعب جدا تقديم تعريف شامل واستقصائي للرواية. لأنها كما يقول **جون كابرياس**CABRIES:

" تستطيع أن تستخدم جميع الأجناس للخطاب، وبالخصوص أغلب لغات مجتمع في عصر معيّن، وتستطيع

أن تقوم على أيّة بنية اجتماعية و نفسية "[1]، **فهي تنفتح على كل أشكال الأدب والفن، وتستثمر مختلف المعطيات النفسية والاجتماعية الّتي من شأنها أن تسهم في إنتاج الخطاب الروائي.**

على هذا النحو تفرعت وتعددت التعريفات حسب الاتجاهات الفنية والفلسفية للمنظّرين فإذا كانهيغلHEGEL قد دشّن تنظيرا للرواية يربط شكلها ومضمونها بالتحولات البنيويةالتي عرفها المجتمع الأوروبي خلال صعود البرجوازية وقيام الدولة الحديثة في القرن 19.[2] فإنّ جورج لوكاتشLUKATCSH قد تابع نفس الاتجاه الفلسفي التاريخي ليرى الرواية " ضرورة التعبير عن العالم الحديث، وأنّها ليست فقط مجرد أشكال وأجناس تعبيرية منحدرة من التجريب و الممارسة، بل هي أشكال كبرى تتوفر على فلسفة تاريخية تستجيب لبنيات اجتماعية وفكرية تشترطها وتحدد فعاليتها "[3]. أما **ميخائيل باختينBAKHTINE**تخلى عن هذا الربط بين الرواية والطبقة البرجوازية.وانطلق من خلفية لسانية سيميائية وتبنّى معطيات التحليل التاريخي للمجتمع واعتبر الرواية مجالا لتوليد المعاني الجديدة.

إنها جزء من ثقافة المجتمع والثقافة مثل الرواية مكوّنة من خطابات تعيها الذاكرة الجماعية وعلى كل واحد في المجتمع أن يحدد موقعه وموقفه من تلك الخطابات .وهذا هو ما يفسر حوارية الثقافة و حوارية الرواية القائمة على تنوع الملفوظات واللغات؛ مثلت هذه الإشارات المقتضبة البدايات الأولى لتعريف الجنس الروائي وإدخاله مجال الحداثة والمعاصرة[4].

إنّ هذا النوع من الفن القصصي لم يعرفه كُتابنا القدماء، إنما دخل أدبنا في جملة ما دخله بتأثير الحضارة الجديدة.، وقد سلكت الرواية في تطورها نفس السبيل الذي سلكته القصة القصيرة، .فظهرت أول أمرها في ترجمات شتى من الأدب الأوروبي، وظلّت الترجمة مصدرها الأكبر حتى ما بعد الحرب العالمية الأولى.على أنّه منذ أوائل القرن العشرين بعض الأقلام اتجهت نحو التأليف، وازدادت حركة التأليف نشاطا بعد الحرب العالمية الثانية ولازالت، حتى بلغت اليوم شوطا بعيدا في ميدان التقدم[5]، من أمثال طه حسين وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ[6] قطب الرحى في بحثنا.

1) العوامل المتحكّمة في إنتاج نجيب محفوظ الروائي وشخصيته الأدبية:من أبرز العوامل الّتي ساعدت على تطور أدب نجيب محفوظ القصصي وعالمه الإبداعي أنّه مثال للرجل الدؤوب، الّذي بعمل وفق خطة رسمها لنفسه منذ البداية. ووفق ذهنية المؤمن بقيمة العمل الفنّي، وحاجته إلى الصبر والإخلاص والمثابرة. بل النضال والتحمُّل إذا لزم الأمر، ثم النظام والالتزام، وهما عنصران أساسيان في نجاح الكاتب وتحقيق أهدافه. إلى جانب هذه العناصر ثمة عناصر أخرى تنبع من شخصية نجيب محفوظ أهمها صدقه مع نفسه فهو لا يعرف المواربة، برغم الظروف الكثيرة الّتي أحاطت بالحياة السياسية ولاجتماعية إبّان تلك الفترة. وهي ظروف كانت تحتم على الكاتب أحيانا أن يلتزم بسياسة التغاضي وغض النظر، أو أن يخشى

الجهر والتورُّط، أو أن يتفادى التعرُّض في كتاباته لمشاكل الشك والصراع الداخلي والنقد المترتب عليه. خوفا من الضغوط الاجتماعية والسياسية[7].

كان نجيب محفوظ برغم هذه الظروف الّتي مرّت في حياته، وهي ظروف كانت تصل أحيانا إلى حد القهر الّذي يفرض الخوف والجبن والاستكانة والتغاضي.، فبرغم ذلك كان نجيب - إلى حدٍ كبير وببراعة ومهارة – ناجحا وقادرا على أن يخلص في قوله إلى نفسه ورأيه.

وكان هذا العامل الأخير من أهم العوامل الّتي ساعدت على تحقيق حريته وبروز شخصيته وفكره في كل ما كتب. فعلى الرغم من عدم توافر الحرية السياسية في بعض مراحل حياته الأمر الّذي يعوق الكاتب ويخلق جوا من الخوف. كان الناس يعيشون فيه سنة بعد أخرى. إلى أن اعتادوه وألفوه حتى أصبح الجبن العقلي أحيانا ميزة من ميزات حياتهم وهم لا يشعرون. على الرغم من ذلك فقد استطاع نجيب محفوظ أن ينجو بنفسه وبحريته بطريقته الخاصة معتمدا أحيانا على أساليب فنية كالرمز والإيحاء للتعبير عن رأيه وفكره بأمانة متخطيا الحواجز والعراقيل[8].

فإذا انتقلنا من العوامل الشخصية والحياتية إلى العوامل الفنية. فإننا نستطيع أن نحدد بعض المظاهر العامة الّتي ساعدت نجيب محفوظ على بلوغه هذه المكانة الّتي حققها محليا وعالميا. من هذه المظاهر الاشتغال بالأدب، وانقطاعه للكتابة القصصية هذه السنوات الطويلة قد أكسبه مخيّلة نشيطة وحيّة. وهذه المخيّلة النشيطة قد يسّرت له القدرة على معايشة الآخرين، وإدراك حالاتهم. وبالتالي فهمهم وحبهم في وقت واحد. لذلك كان أدب نجيب محفوظ في معظمه يكشف عن محبّته للإنسانية إذ كان حِرصه شديدا على التوجُّه إلى الإنسان فيما يكتب متفاعلا نعه ومحِبا له.

وهو بهذا الاتجاه وبطريقة غير مباشرة يخدم الفضيلة ويدعو إليها، وذلك بالرغم الثنائيات الّتي تملأ عالمه الفنّي، والّتي تجمع بين حياة الجماعة والفرد، الخير والشر، المؤمن والمتشكك، القانع والثائر، الرافض والمستسلم. بين الإيمان بقوميته ومصريته والإيمان بعزّة الإنسان، ومع ذلك فقد كانت هذه الثنائيات هي منشأ التوتُّر والقلق، ومنشأ لصراع الأخلاق في أدب نجيب محفوظ. وهذا يجرّنا إلى مؤثر أخر في تحديد أهم المضامين الّتي شغلت الكاتب وحدّدت ملامح عالمه، فقد جاء نجيب محفوظ بعد فترة طويلة من التجارب الّتي سبقته، وبعد أن استقرّ مفهوم الرواية، وبعد التخبُّط قرونا في السفسطات اللغوية. بعد هذه المراحل من فن الكتابة أدرك نجيب محفوظ أنّ عالم اليوم ، بعد التطور الّذي حققه فن الرواية في القرن العشرين، هو عالم لابد فيه للكاتب أن ينزع إلى محاولات جادّة في فهم النفس والشخصية، والعمق في الوضع الإنساني وأزمات الإنسان المعاصر. واختراق معاني الظلم والقسوة والشر، والدعوة إلى العدالة الإنسانية والحب، وتقدير دور العلم في تطوير الحياة وبناء الإنسان[9].

2) تحولات الكتابة الروائية عند نجيب محفوظ:مرّ أدب نجيب محفوظ بمراحل متعددة تدلُ على وعيه بحركة التاريخ وحركة المجتمع وتطوره من حقبة لأخرى. من أهم هذه المراحل حسب أقوال النقاد والمتخصصين ما يتداخل، وما يتجاوز التقسيم بل يستعصي عليه، اللهم إلا إذا قُسِّم هذا الإبداع بحسب الحقبة الزمنية[10]، حيث شكلت هذه مراحل تحولات مسار الكتابة عند نجيب محفوظ.

ذلك أنّ نجيب محفوظ عمد في رواياته الأولى إلى رصد تاريخ مصر عبر روايات: "عبث الأقدار" المنشورة علم 1934م، ثم "أدونيس" 1943م و "كفاح طيبة" 1944م، وتدعى هذه المرحلة بالمرحلة التاريخية. وقد أعقب هذه المرحلة بكتابة مجموعة من الروايات عن أحياء القاهرة والبيئات الشعبية التي عاش فيها، وهذه الروايات تحمل أسماء أماكن أحداثها مثل: "خان الخليلي" 1945م و"زقاق المدق" 1947م و **الثلاثية** (بين القصرين1956م، قصر الشوق 1957م، السكرية 1957م) فضلا عن روايات لا تحمل أسماء أماكن الأحداث ، وإن وقعت أحداثها بالأماكن ذاتها مثل: "القاهرة الجديدة" 1945م، و"السراب" 1948م،و "بداية و نهاية" 1949م . و المرحلة الثانية التي ذكرنا أهم مؤلفاتها تدعى: المرحلة الواقعية. فيما يرى النقاد أنّ روايته "أولاد حارتنا" تمثل مرحلة انتقالية بين المرحلة الواقعية **ومرحلة الرؤى الفلسفية** ؛التي بدأها عام 1961م. براوية "اللص والكلاب" تلك الّتي أتبعها بروايات: "السمّان والخريف " 1962م و"الطريق"1964م و"الشحاذ" 1965م، و"ثرثرة فوق النيل" 1966م و"ميرامار"1976م و"المرايا"1971م. ليغيّر من شكل وطريقة السرد من رواية لأخرى، كما يبدي اهتماما كبيرا بالتغيرات الاجتماعية والسياسية في تلك المرحلة ، وما أعقبها. مع تجديد في السمات الفنية لرواياته كما هو الحال في روايات: "الحب تحت المطر" 1973م، "الكرانك"1974م، "حكايات حارتنا" 1975م، و"قلب الليل" 1975م "حضرة المحترم" 1975م.

وكما صاغ نجيب مجموعته القصصية "همس الجنون" 1938م فإنّ الحنين إلى القصة عاوده مرّة أخرى عام 1962م في مجموعة "دنيا الله" ثم لم يلبث أن كتب مجموعة "البيت سيء السمعة" عام 1965م. ليؤكد نمسّكه بفن القصة وتجديده الرائع له، وحرصه على إثراء الفن بمجموعات: "خمّارة القط الأسود " 1969م ، "تحت المظلة " 1969م، "حكاية بلا بداية ولانهاية" 1971م ، و "شهر العسل" 1971م ، "الجريمة" 1973م. ثم غادر نجيب القصة راجعا إلى الرواية ومقدما للقرّاء واحدا من أهم إبداعاته "ملحمة الحرافيش" 1977م .ولتتنوّع أشكال الإبداع الّتي يقدمها عبر رواياته وقصصه ولتختلف الموضوعات والتوجهات كما هو الحال في أعماله : "الحب فوق هضبة الهرم" ، و"الشيطان يعِظ" 1979م،"رأيت فيما يرى النائم" 1982م ، و"الجهاز السري" 1984م ،و"صباح الورد". وغير ذلك من الأعمال منها : "السهم"،"أصداء السيرة الذاتية". و"أحلام فترة النقاهة"، وروايات تميزّت بالتنوّع مثل :"عصر الحب" 1980م و"أفراح القبة"1981م،"ليالي ألف ليلة" 1982م،"العائلتان في الحقيقة".و"يوم قتل الزعيم"،"أمام العرش"و"رحلة ابن بطوطة"،"الباقي من الزمن ساعة". كلها أعمال تؤكد أنّ محفوظ هو الكاتب العربي الأول على مرّ العصور، وأنّه أكثر الأدباء العرب من حيث الإنتاج الأدبي .

3) الرؤى المتغيّرة في روايات نجيب محفوظ: تفرض التبدلات والتناقضات في الظروف الاجتماعية والسياسية والحضارية الّتي يعيشها الإنسان العربي تحولات هامة على الأشكال الأدبية الّتي تحاول تجسيد الشخصية العربية، ونستطيع أن نرصد نموذجا لهذه التحولات في كتابات أديب مصر الكبير نجيب محفوظ[11].ذلك أنّنا يمكن أن نجد عند نجيب محفوظ وبعد أن أسّس شكلا ومعنا أصيلين للرواية الواقعية النقدية. ففي "بداية ونهاية" 1949م يستطلع تضحيات أسرة برجوازية في محاولتها للتمويل بتسلّق أحد أبنائها إلى طبقة الموظفين المصريين ،ثم الجهود اللاحقة لهذا الابن لإخفاء أصوله الاجتماعية المخجلة. و يمكن أن نجد التحولات الأساسية تتجاوز نوع الرواية الوصفية المستوفاة للشروط الاجتماعية والسيكولوجية والمستهدِفة أساسا بناء نموذج لنوعيات للطبقة المتوسطة والحياة الشعبية في الحارة المصرية.

ولعّل أهم تجاوز لنجيب محفوظ كان في رواية "المرايا" ثم في عودته واستغراقه بعمق في تقصّي معالم الحارة المصرية والشخصيات[12].ثم الأهم من ذلك التشوّق لرؤى فكرية تتعلّق بمعنى الزمن والموت والميلاد، الظلم والبراءة. حيث تصبح هنا شهادة وحلما واقعيا ومجازا رمزيا ذليلا ، ومناجاة بمعنى الحياة والموت. وقد بلغت قمّة هذه المحاولة في "ملحمة الحرافيش" .

إنّ المنهج الروائي في "المرايا" أوصل الكاتب لشكل وبناء قابل لأن تصبح الرواية شهادة على الإنسان المصري في ربع قرن شهادة تغوص حتّى واقعه الأعمق والأعم، فهي تكشف وتجسّد بتحليل عميق عناصر الواقع الاجتماعي، وأزمة الطبقة المتوسطة . غير أنّ دوافع الكاتب لتقديم هذه الشهادة الكلية برغم تحفظاته واستهدافه الموضوعية بإثباتها، لأنّها متناقضة وغير منطلقة لمداها البعيد. ولأنها اصطدمت بصميم مشكلات الحياة الشخصية والاجتماعية والعقائدية المتوافقة الّتي يعاني منها الكاتب نفسه.

لقد قدّم ترجمات لشخصيات هي روايات حياة وشهادات ساخرة، حيث تنمو وتتحرك كل صور العالم. غير أنّها في النهاية أثار خاصة لا تنظر إلى العالم وحواشي الحياة إلا من خلال العقد النفسية والأزمة الفكرية الّتي نسجت جوهر رؤية أبناء البرجوازية المصرية الصغيرة في تاريخنا الحديث. وبالتحديد منذ الثلاثينات، بحيث يمكن أن تصبح دراسة وجدانية للصعود الاجتماعي لأبناء هذه الطبقة، وأيضا العجز والشلل الّذي بدأ يصيب عالمهم الأخلاقي[13]،.وتقديم الأسانيد الاجتماعية لدورهم التاريخي في حياتنا ؛ وبالتالي ضياعهم ووحدتهم، والعودة للكشف المباشر عن طبيعة هذه النماذج على أرض الواقع. وفي شكل وثائق تتضمّن مغزى صريحا، وهو المحاولات السابقة. هذه المحاولات أصبحت غير مقنعة للكاتب نفسه، وهي بذلك للناقد وجهات نظر أصلية لعلاقة الواقع بالفن، ويعني التحولات وخصوصية النفس الإنسانية الّتي تتمرد على الصياغة النمطية، وما يسّمى النموذج من الفن[14].

4) نجيب محفوظ والواقعية: عرفت الرواية العربية لحظات أساسية في زمن تقدّمها نحو الحكي التحليلي إذ لم تبدأ هذه الكتابة جنسا متكامل العناصر، بل سيرا ذاتية جاءت نتيجة احتكاك بعض كتابنا بالغرب في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، وقد كانت تلك المحاولات بداية لاجتياز الرواية العربية مرحلة الإرهاص

والتعثر ودخولها مرحلة التجنُس[15].. في هذه المرحلة ظهر روائيون مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ الّذي تميّز بسبب غزارة إنتاجه وملاحقته للتطورات الاجتماعية وتطويره للكتابة الواقعية. أول محاولاته في الكتابة ظهرت 1934م تلتها المجموعة القصصية "همس الجنون" سنة 1939م .لعبت دورا في تكوين شخصيته عدّة مؤثرات منها : - الثورة – الأزمة الاقتصادية 1930م – الاستبداد والإقطاع – التأثر بالاتجاهات الروائية الغربية التاريخية والواقعية .. إضافة إلى ذلك لعبت الأصول الشعبية لنجيب دورا هاما في أعماله وشخصياته إذ إنّه يجدهم في الواقع ولا يفصلهم عن الحياة اليومية.حيث إنّ الفن الأدبي ينبغي أن يُمنح مباشرة من الحقيقة ، ولا يمكن أن يعبّر عن خارج المشاعر الخالصة للمؤلف.

والواقعية عند نجيب محفوظ واقعية مهذّبة ليست تصويرا جامدا للواقع، وإنما هي رؤية الواقع في مجاله العريض ومن خلال حركته التاريخية الشاملة. بحيث ترتبط الصورة والدلالة والحدث، والهدف هو الذّي جعله يحرص الحرص كلّه على أن يقدم صورة تفصيلية متساوية لكل من الواقع المادي والواقع النفسي ، مع ما يتطلبه هذا من قدرة فنية خارقة وتملُّك لزمام الصنعة[16].

5) قراءة في المتن السردي للثلاثية: ثلاثية نجيب محفوظ مجموعة من ثلاث روايات هي في الحقيقة ثلاثة أجزاء لرواية واحدة تمتد وقائعها من سنة 1917م إلى سنة 1944م ، وفيها يتجلّى لنا ما حدث من تطوّر في الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر[17]، فإذا نظرنا إلى هذه الثلاثية الّتي تقع في نحو 1200 صفحة وجدناها تحكي حياة أسرة مصرية منذ مطلع القرن العشرين حتّى منتصفه، ومن خلالها نرى مصر بكل أحداثها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبكل مقوماتها الثقافية والفكرية وبكل قيمها وتراثها في نسيج عريض متكامل ، ينبض بالواقع الحي وبالتاريخ[18]، ويقوم نجيب في الثلاثية بتصوير مجتمع الطبقة الوسطى في مصر[19].

تتألف الثلاثية من ثلاثة أعمال متدرِّجة تاريخيا هي: **بين القصرين** الّتي ينحصر تاريخ أحداثها ووقائعها بزمن معيّن ومرحلة تاريخية محددة، حيث تبدأ بتولّي الملك فؤاد السلطة، وتنتهي كذلك بحدث هام هو عودة سعد زغلول من منفاه ومظاهرات انتصار ثورة 1919م، كما تنتهي بحدث روائي خطير هو قتل فهمي ابن السيّد أحمد عبد الجواد. وفهمي هو الفتى المناضل، المكافح لقوات الاستعمار والسلطة. وتنحصر أحداثها بين عامي 1917 و 1919م[20].

أما **قصر الشوق** فتمثل المرحلة الثانية من الثلاثية، وتبدأ تاريخيا بسفر سعد زغلول للمفاوضة وتنتهي بوفاته، فهي تنحصر تاريخيا بين عامي 1924 و 1927م.، وأمّا **السكرية** هي الجزء الثالث والأخير من هذا العمل الكبير، تبدأ بخطاب النحاس في مؤتمر وفدى، ثم تنتهي بالاعتقالات السياسية للإخوان المسلمين والشيوعيين في أثناء الحرب العالمية الثانية، وتقع أحداث السكرية بين عامي 1935 و 1945م[21] . هذه كانت فكرة عامة عن الروايات الثلاث والآن سنحاول تقديم قراءة في كل واحدة منها .

1-5) **بين القصرين:** هي أولى الروايات في الثلاثية، وبين القصرين اسم يطلق على شارع في بعض مناطق القاهرة القديمة. ترى هناك بيتا تقطنه عائلة من تلك الأسر التجارية المتوسّطة، والمؤلفة من الوالد أحمد عبد الجواد والوالدة أمينة وخمسة أولاد، ثلاثة صبيان وبنتان.

يعيش الجميع في جو تقليدي قديم، والد أناني صارم، القول له في كل شيء، لا يُعنى بغير ما يروقه ويُشبِعُ شهواته. وأُم مسكينة خاضعة لجبروت زوجها، طيبة القلب لكنها كثيرة التعلق بالخرافات والأوهام. وأولاد مختلفو النزعات لكنهم مسيّرون بإرادة والدهم المستبد، وتأتي الحرب المصرية 1919م وتدفع أحدهم برغم إرادة والده للالتحاق بها، والاستشهاد في حومتها[22].

2-2) قصر الشوق: هي الرواية الثانية، وقصر الشوق هو اسم الشارع الّذي يقع فيه بيت ياسين ، وهو أكبر أولاد أحمد عبد الجواد. في هذه الرواية نرى الوالد قد خفّت وطأة استبداده، وأخذت العائلة تتنفّس الصعداء في شبه جو من الحرية، وتبرز فيها شخصية كمال الابن الأصغر الّذي نال شهادة البكالوريا وأصبح ذا وعي سياسي وفكري، وهو يمثل اليقظة الجديدة الّتي حرّكت نفوس الجيل المتعلم. وقد تسرّبت إليها من الأفكار ما لم تعهده من قبل. وهكذا خرج من نطاق تقاليده واندفع في سبيل قومية وروحية جديدة[23] .

3-2) السكرية: تأتي الرواية الثالثة السكرية، وهو اسم الحارة الّتي كانت تقيم فيها خديجة ابنة أحمد عبد الجواد مع زوجها وأولادها. وهذه الرواية تمثل المرحلة الأخيرة من مراحل التطور الاجتماعي والفكري الّذي حدث في الطبقات المتوسطة من المجتمع المصري. فالمخترعات الحديثة أخذت تعُم كل مكان، ولم يعد النشء يرضى الحياة الّتي كان آباؤه وأجداده يعيشونها إذ ترقى علميا فحصل على الشهادات الجامعية، واستنار بنور الحضارة العصرية سواء في ذلك الشبّان منهم أو الشابّات. وكان من ذلك أن اتجهوا في تفكيرهم اتجاهات مختلفة. وسلكوا في معتقداتهم سبلا متباينة[24] .

6) تشكل الحدث وبناء الحبكة:تبدأ الأحداث بالسيّد أحمد عبد الجواد التاجر الناجح، الرجل الّذي يحكم أسرته من خلال التقاليد الشرقية الصارمة بيدٍ من حديد، وهو في المنزل الرجل الصالح المَهيب، وفي ندواته الخاصة في الليل النديم الرقيق والجليس الأنيس، حيث يجتمع مع صفوة من أصدقائه وبعض الراقصات، وتسير به وببيته الحياة ؛ فيكبر ابنه ياسين ليصير صورة من أبيه، وإن لم تكن له حكمته فهو مندفع وراء شهواته، وتبعه الابن الأوسط كمال الّذي يتّجه نحو الثقافة الحديثة ويقرأ لداروين وأمثاله، فيُباعد هذا بينه وبين بيئته ويصيبه بالانفصال، وبكثير من الحيرة والتعاسة والجمود في النهاية وبخاصة بعد أن يفشل في علاقة عاطفية.

ويندفع الابن الأصغر فهمي في تيار الوطنية ، حتى تصرعه رصاصة من رصاصات الإنجليز، وتتزوّج الابنتان عائشة وخديجة من أخوين هما سلالة عائلة تركية قديمة، يعيشان على إيراد من عقار حياة كلها كسل

وتراخٍ، ويظل هذا الجيل في الأسرة يتخبّط بين الرغبات والتقاليد، وبين الواقع والمتطلعات ، وبين التراث والثقافة الحديثة. ويتحدّد النموذج في ياسين الشهواني المندفع ، وكمال المثقّف الحالم والمنطوي[25].

تنجب البنتان وينجب ياسين، ويكبر الجيل الثالث من هذه الأسرة فنرى ولدين من أولاد خديجة. أحدهما يندفع في تيار الإخوان المسلمين، والأخر ينضم إلى الداعين للمبادئ المتطرفة.، ويقدّم نجيب محفوظ حياة الأخوين من خلال هذه التيارات، وينتهي بهما إلى أنّهما وإن كانا قد عبرا المرحلة الّتي وقف عندها خالهما كمال ؛ وهي السلبية والانطواء إلا أنهما لم يجدا نفسهما ، ولم يحققا التكامل المنشود بين الثقافة والحياة الاجتماعية. إنّما هي اضطرابات وتطلعات ممّا تعانيه غالبا الطبقة الوسطى والصغيرة[26].

7) البناء الزمني: تعتبر ثلاثية نجيب محفوظ قمّة المرحلة الواقعية الاجتماعية وتتويجا لها. كما تمثل فاصلا بين مرحلتين متميّزتين في الاتجاهات الفنية والأسلوبية عند الكاتب فقد كانت مرحلة الأربعينيات تُعنى بتقديم جوانب الحياة المختلفة ، بأسلوب واقعي. وقد اتّضح ذلك بالنظر إلى الحبكة الفنيّة الّتي حرصت الرواية على أن تكون مرتبطة بالأحداث الواقعية الّتي تضطرب بها الحياة[27] – مثلما لاحظنا في العنصر السابق - كما اهتم هذا الاتجاه بالزمن بوصفه عنصرا هاما من عناصر الحدث الروائي ليؤكد واقعيته. كما يكشف عن الإحساس بقيمة الزمن، واختلاف هذه القيمة من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل. وقد رافق عناصر الزمن البعد المكاني وذلك لكي تكتمل للحدث الروائي قيمته الواقعية[28].وقد حكمت هذه العناصر مقادير هذا الاتجاه عند نجيب محفوظ الّذي لم يتخلّعن واقعيته في تصوّر البيئات المحلية .

ويمكن لقارئ الثلاثية أن ينظر إلى الزمن بوصفه البطل المهيمن على الشخصيات ومصائرها . الزمن بما هو فاعل في الإنسان والأشياء[29]، ويصرّ نجيب محفوظ على أن يكون البطل الخالد في رواياته هو الزمن، ومن خلال هذا الزمن تنشأ وتذوب العقائد والتقاليد والقيم والعادات، ومن خلال هذا الزمن تتكون القيم والمفاهيم الجديدة[30].

8) الشخصيات:إذا كان لنا أن ننتقل إلى دليل التكامل والتوازن في الثلاثية، فلا بد أن نتوقف عند طبيعة شخوص الرواية وأبعادها وملامحها المميّزة. وملاحظتنا لعنصر الشخصية في الثلاثية يمكن أن يتركز في النواحي الآتية :

أولا: ما نستشعره تحت السطح في معظم الشخوص من ذلك القلق والتوتُّر الّذي يكمن داخل الشخصية ويحركها، إنه التوق العارم إلى شيء غامض. إنّه البحث الدائب الحائر، يحاول شق طريقه في الحياة. والتماس السبيل إلى البحث عن النفس وتحقيق وجودها. كلٌ حسب طبيعته ومزاجه وثقافته، وانعكاس تقاليد البيئة عليه. ومعظم هذه الشخصيات تعبّر عن جوهر اللحظة الحياتية والسياسية الّتي تصدر عنها.

ثانيا : إنّ كثير من شخوص الثلاثية يتحول عندها هذا التوق من الخاص إلى العام. فلا تنحصر في محيطها الضيق، بل يسعى الكاتب في بعث الانطلاق حتى عن طريق اللاوعي من الخاص إلى العام، ويتم هذا الانطلاق بالتناول الواعي والحساس وبالرؤية الذكية لأهم أبعاد الخاص أو الواقع المعيش. ومن ثمّ تصبح الشخوص قادرة على أن تكون بمثابة الصوت الحقيقي لجيلها في آلامه وآماله .

ثالثا : التنوع البارع في تحديد القِسمات، فلكل شخصية عالم مستقل منفرد، يحدد الكاتب خطوطها الداخلية والخارجية بمهارة. فالكاتب يرسم لنا الشخصية بلمسات سريعة وأفعال تغنيك عن المعاشرة الطويلة، غير غافل عن سماتها النفسية وملامحها الشخصية، إلا الّذي لا طائل وراءه من التفصيلات والجزئيات. وفي هذه الحالة تنتفض شخوص نجيب محفوظ من بين الثلاثية حيّة نابضة شاخصة سمتها وزيّها ومزاجها وفنّها، حتى يُخيَّل إليك أنّك قد عاشرت هذه الشخصية.

رابعا : والعنصر الرابع في رسم الشخصية هذه الازدواجية أو الثنائية الّتي تراها شبه ظاهرة عامة في الثلاثية ، وهي ازدواجية تجدها في الشخصية الواحدة. وأظهر ما ترى هذه الازدواجية عند السيد أحمد عبد الجواد الأب الّذي تراه شديد التديُّن شديد التحرر من القيود إذا خلا لنفسه[31].

خامسا :ثمة شخصيات لا تعرف الازدواجية، بل تبقى نمطا ثابتا لا يتغيّر، سماتها الداخلية والخارجية واحدة مثل شخصية الأم أمينة ؛ وهي أم مصرية من طراز يمثل حقبة معيّنة ، محافظة مسالمة مطيعة، لا تعارض زوجها، تنهض على خدمته وخدمة أولاده، تعرف عاداته وأخلاقه وفهمه للأمور فتعمل جاهدة على إرضائه في جميع الحالات ، وتحمل قلبا رقيقا غاية في الشفافية .

ومن الشخصيات الثابتة كذلك شخصية ياسين الّتي تعاونت ظروف خاصة تتعلق بوضع أمه المطلقة، واكتشافه لصورة أبيه الحقيقية الّتي تكمن وراء ظاهره هذه العوامل وغيرها ، قد جعلت شخصيته ساخرة متهالكة على اللذة والاستمتاع وبعيدة عن كل ما هو صارم جاد .

أما شخصية كمال أو شخصية فهمي فهما يمثلان نوعية من الشخصيات الّتي تنمو وتتطور فكرا ونفسا وفق الحياة الاجتماعية والسياسية، وحسب موقف الأسرة وطبيعة تكوينها وظروفها الحياتية. على أنّ كمال وفهمي يحملان إلى جانب ذلك هموما ترتبط برغبتهما الناضجة في تطوير الأوضاع السياسية، لذلك قاما بدور إيجابي فعّال في المقاومة والكفاح الّذي أدّى إلى تضحية فهمي بحياته في الوقت الّذي يستمر كمال في حمل راية المعاناة الفكرية رغبة منه في القيام بدوره والمشاركة الفعّالة في الإصلاح. وهما شخصيتان متميّزتان سلوكا وتفكيرا . فلهما سمات نفسية وفكرية تختلف عن سائر الشخصيات في الثلاثية[32] .

هوامش البحث:

[1] جون كابرياس –محاولة في تصنيف الرواية – العرب والفكر العلمي-1991م –ص 56

[2] محمد برادة – موقع باختين في مجال نظرية الرواية ..مقدمة كتاب الخطاب الروائي لميخائيل باختين – دار الأمان 1987م - ص5

[3] المرجع نفسه –ص 7

[4] محمد برادة – أسئلة الرواية أسئلة النقد – دار الآفاق .1989م- ص 34

[5] أنيس المقدسي – الفنون الأدبية و أعلامها في النهضة العربية الحديثة – دار العلم للملايين .بيروت – ط3. 1980م – ص515

[6] هو نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا. رأى والده أن يسميه على اسم طبيب الولادة الشهير نجيب محفوظ. ولد في:11ديسمبر1911م بحي الجمالية بالقاهرة، كان أبوه موظفا بسيطا استقال واشتغل بتجارة مع أحد أصدقائه، كان له أربع أخوات و إخوان أصغرهم يكبر نجيب بنحو عشر سنوات، في الرابعة من عمره ذهب إلى كُتاب الشيخ بحيري ألواقع في حارة الكبابجي بالقرب من درب قرمز ثم التحق بمدرسة بين القصرين الابتدائية. وانتقلت أسرته عام 1924م من الجمالية إلى العباسية. بعد أن تحصل على شهادة البكالوريا من مدرسة فؤاد الأول بالثانوية التحق بكلّية الآداب قسم الفلسفة وبدأ منذ أول أيام دراسته ينشر مقالات متفرقة في المجلات التي كانت تصدر في ذلك الحين ، وكان قد نشر أول مقال له في أكتوبر سنة1930م بعنوان: " احتضار معتقدات و نولّد معتقدات"، وهو في السنة الثانية 1932م ترجم كتاب "مصر القديمة" **لجيمس بيكي** ، لمس تشجيعا من **سلامة موسى** فنشر مقالات فلسفية عديدة في: "المجلة الجديدة" وهو لا يزال طالبا في الجامعة. واستمر إلى ما بعد التخرج. أتمّ دراسته للفلسفة عام 1934م، وكان ترتيبه الثاني على دفعته. التحق بالدراسات العليا فور تخرّجه. وبدأ يعِد لرسالة الماجستير التي كان موضوعها"مفهوم الجمال في الفلسفة الإسلامية" تحت إشراف الشيخ **مصطفى عبد الرزاق**.وفي هذه الأثناء تسلل إلى قلبه حب الأدب، وبدأ يسيطر عليه ويجذبه بإلحاح.نشر أول قصة قصيرة في المجلة الجديدة الأسبوعية الصادرة بتاريخ: 1934/08/03م بعنوان: "ثمن الضعف"، بعد نحو عام من إعداد رسالة الماجستير قرّر التخلي عنها ، وأنصرف كلية للآداب فكتب في الرواية و القصة و ألّف نحو ثلاثين رواية طويلة و مئات القصص القصيرة مضاف إليها ما أنتجه من الحواريات و المسرحيات. شغل عدة وظائف حكومية كان آخرها منصب مستشار لوزارة الثقافة ثم أحيل إلى التقاعد سنة 1972م، وقد حضي أديه بدراسات متعددة ما بين المقالات والبحوث، ومنذ 1939م بقي هذا الكاتب المبدع يثري الأدب العربي بفني الرواية و القصة.[6] إلى أن بلغ الكتاب أجله وتوفى يوم 31أوت2006م.هو جبروت الرواية العربية وهرمها الأكبر وشيخ كتابها و سيدهم. وماسة الإبداع التي كلّما تأملتها بهرتك ألوانها وأضوائها. ولأنّه نجيب محفوظ فهو السائر على درب الالتزام بصدق و صبر و إخلاص.

[7] ينظر محمد زكي العشماوي – أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية – دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية . مصر- سنة 2005م - ص 337

[8] المرجع نفسه – ص 338

[9] المرجع السابق – ص338

[10] فاروق عبد المعطي – نجيب محفوظ بين الرواية و الأدب الروائي – دار الكتاب التعليمية .بيروت – ط2 - 1994م - ص99.

[11] المرجع نفسه - ص45

[12] المرجعنفسه – ص47

[13] المرجع نفسه - ص47

[14]المرجع نفسه – ص 48

[15]محمد برادة – أسئلة الرواية أسئلة النقد – ص38

[16]محمد عبد المنعم خفاجي – دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه – ج2 – دار الجيل .بيروت –ط1 .1992م – ص453

[17]أنيس المقدسي – الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة– ص521

[18]محمد عبد المنعم خفاجي – دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه– ص451

[19]إبراهيم السعافين وآخرون – أساليب التعبير الأدبي – دار الشروق.الأردن- ط1.سنة2000م – ص 304

[20] محمد زكي العشماوي – أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية- ص 353

[21]المرجع السابق – ص354

[22]أنيس المقدسي – الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة - ص521

[23]المرجع نفسه – ص521

[24]المرجع السابق – ص522

[25] محمد عبد المنعم خفاجي – دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه. ج1– ص452

[26]المرجع نفسه – ص453

[27] محمد زكي العشماوي – أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنّية - ص 356

[28] المرجع نفسه – ص 355

[29] إبراهيم السعافين وآخرون – أساليب التعبير الأدبي – ص318

[30] محمد عبد المنعم خفاجي - دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه .ج2 – ص453

[31] محمد زكي العشماوي – أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية – ص361

[32]المرجع السابق – ص362